

# نقطة التماس بين الوعيني

تعاليم المعلم برمهنا يوغاندا

الترجمة: محمود عباس مسعود



تؤكد الكتب المقدسة أن الله يفوق إدراك العقل والفكر. إذ بالرغم من جبروتها يبقى مجالهما قاصراً عن استيعابه والإحاطة به. لذلك العقل البشري عاجزٌ عن تكوين مفهوم فعلي عن الله ولا قدرة له على فهم ذلك الذي لا بداية له ولا نهاية.

عندما تنظر للشمس على بعد ملايين الأميال في الفضاء، فإن ذلك النجم الهائل يبدو أصغر بكثير من أرضنا. ومع ذلك فإن قطر الأرض هو ٧٩٠٠ ميلا على وجه التقريب، وقطر الشمس يفوق قطر الأرض بمائة مرة أو أكثر. فلو تمكنت من وضع كوكبنا الأرضي بمحاذاة الشمس لظهرت الأرض صغيرة مقارنة بالشمس. ولو افترضنا أن المجال الشمسي الجبار آخذ في التمدد والانتساع إلى أن تبتلع كتلته العملاقة السماء الزرقاء برمتها، فالسماة التي نراها هي ليست سوى جزء صغير بل ذرة دقيقة من الفضاء الذي يتخلل الكون اللامتناهي. ولو واصلت الشمس اتساعها وتمدها في الفضاء إلى ما لا انتهاء، لما تمكنت مع ذلك من الإحاطة باللانهاية. الوهم الكوني للصغر والتناهي يحد ويصد العقل عن إدراك ذلك الاتساع الكوني. ومن أين أتى هذا الفراغ المطلق، وأين هي حدوده؟ إن الذي لا يخضع للأبعاد والمقاييس ولا حد له ولا منشأ هو الله الكلي الحضور والموجود في أقصى أقاصي الفضاء. إنه في النجوم البعيدة النائية، مثلما هو موجود في داخلك وداخلي، وهو على دراية واعية بكل حيّز يشغله مهما كان صغيراً أو كبيراً.

الله ليس العقل لأنه خالق العقل ويفوق قواه، وإلا لاستطعنا إدراكه بواسطة العقل. ولكن يمكننا أن ندعوه على نحو صحيح ودقيق وعياً إلهياً، فرحاً إلهياً، حضوراً إلهياً؛ ولكن ليس عقلاً. ومع أن العقل عاجز عن الإحاطة بالموجود الكلي لكنه قادر مع ذلك على الشعور بوجود الله. إن الشعور بحضوره وقياسه هما تجربتان مختلفتان تماماً. الموجة لا تستطيع قياس المحيط، ولكن هناك نقطة تماس بينهما. وبالمثل، فحيثما يصبح المطلق غير المحدود متناهيًا ومحدودًا فهناك تكون نقطة التماس. وهذه النقطة هي الوعي السامي. هذا الوعي يمكنه الشعور بالله أي ملامسة حضوره. فعندما نوسّع مجال العقل العادي حتى يتصل بالوعي السامي اتصالاً وثيقاً، نتمكن عندئذ من الإحساس بالحضور الإلهي.

لقد انحدرنا من المطلق غير المحدود إلى المقيد المحدود. اليوغا هي سحب الذهن من الأشياء الخارجية بغية تركيزه على ينبوع الحق الباطني. وبهذه الكيفية وحسب يمكننا اكتشاف الطريقة

التي استخدمها الله في تكثيف وبعه إلى الصور المحدودة لمخلوقاته وللأكوان التي تسكنها. الجسم البشري هو أكثر خلائق الله دقة وتعقيداً. إن خلية أولية وحيدة لاندماج الجرثومة المنوية بالبويضة تنقسم، وبتضاعف عملية الإنقسام تبني حولها بلايين الخلايا كي تخلق الهيكل الجسدي الذي يأوي وعينا الروحي.

إنك لا تعرف مقدار الطاقة المختزنة حتى في غرام واحد من اللحم. فلو تم إطلاق تلك الطاقة لانتشرت الإلكترونات التي لا حصر لها في الفضاء اللامتناهي. إن قوة ومجال الوعي الحال في الجسد يفوقان إدراك الإنسان. ومع أن بنيتنا الظاهرة مكونة من اللحم والدم والعظم، غير أنه خلف خلاياه الكثيفة توجد تيارات إلكترونية وتيارات حيوية. وخلف هذه الطاقات الرقيقة الدقيقة تكمن الأفكار والمدركات.

الفكر لا ينضب ولا يعرف النفاذ. فمنذ تأسيس العالم وأفكار تفوق حد الخيال تتجاوب في الأثير. لا يمكن إحصاء تلك الأفكار ولكن لو تأملت عدد الأفكار والمشاعر التي جالت بخاطرك وعبّرت عنها طوال عمرك لتكوّنت لديك فكرة عن تلك الأفكار التي تفوق الملايين عدا. حاول إن استطعت أن تتذكر كل الأفكار التي فكرتها خلال سنة واحدة، أو يوم واحد فقط، ثم فكر بالكم الهائل لأفكار كل البشر المترامية عبر الأزمنة الغابرة حتى يوم الناس هذا. الله يعرفها كلها. العقل لا يمتلك القدرة على قياس حتى الظواهر الطبيعية الدقيقة. كم من الإلكترونات تدور في الكهرباء المناسبة إلى المصابيح الضوئية! هناك ترليونات تتراقص معا مؤلفة الضوء الذي نراه. هذه الجزيئات التي لا يمكن رؤيتها حتى في الميكروسكوب تنتقل من أي نقطة إلى أي مكان آخر في العالم في غضون ثوان قليلة. التجارب العلمية تؤكد ذلك.

لو حاولت إحصاء عدد البروتونات والإلكترونات المكتفة في كرتنا الأرضية فإن العقل سيواصل هذه العملية الحسابية قليلاً ثم يتوقف. فالأشياء الظاهرة لعقل الباحث تبدو لا متناهية. ولكن هناك نقطة تصبح الأفكار معها دقيقة للغاية بحيث يتعذر متابعتها. فمن ذلك المستوى الذي لا يمكن للعقل اختراقه والنفاذ إليه يسكب الله نوره الجوهري: الاهتزاز الكوني الذكي، الذي يبني الخليقة المحدودة.

إذا استخدمنا العقل استخداماً صحيحاً نستطيع أن ندرك كيف أن الله يفوق العقل والفكر معاً، وكيف يمكن ملامسة جوهره بقوة بصيرة الروح فقط. يجب أن نعثر على وعي الله عن طريق الوعي السامي: نواة العقل والذكاء. فطبيعة الله المطلقة تظهر للإنسان من خلال البصيرة أو وعي الروح السامي. إن الفرع الذي يحس به المتأمل يُظهر وجود الفرع الأبدي المنتشر في الوجود وما وراءه. النور الذي يبصره المرید في التأمل هو النور الكوكبي الذي يتكوّن منه عالمنا المادي المحسوس. وإذ يبصر الشخص هذا النور فإنه يشعر بالتوحد مع كل ما في الوجود.

التغلب على الظروف المعاكسة

"وستعرفون الحق والحق يحرركم"

الحرية التي تمنحها معرفة الحق أو الحقيقة هي التحرر من الشرور بما فيها من أخطاء وتجارب تقيد النفس البشرية بالمستوى الأرضي.

وهي أيضاً التحرر من البواعث الأتانية التي تتمحور حول تلك الأنا التي تسحب بني آدم من المذكرات إلى الدركات وتجرحهم في قيعان الطبيعة البشرية.. تلك الأتانية التي تقبع خلف وعي الشعوب والأمم وتطغى على دوافعها وأفعالها.

ما من حالة إلا ويمكن قهرها عند فهم طبيعتها، أو عند تمزيق الحجاب الذي يغلف تلك الحالة. المعرفة هي الطريقة التي توصلنا إلى التحرر من الخوف الذي متى ما اقترن بحالة من الحالات النفسية يشل إرادة المصاب بتلك الحالة ويحول دون تغلبه عليها. ولا يمكن قهر الخوف نفسه إلا بامتلاك معرفة دقيقة لطبيعة ذلك الخوف.

على سبيل المثال، إن سار أحدهم في مجال مظلم تتواجد فيه الأفاعي، فإن مجرد رؤية حبل سيبعث الخوف في نفسه إلى أن يدرك أن ما ظنه ثعباناً هو بالفعل ليس سوى حبل لا ضرر منه. البشر عموماً يرهبون الموت إلى أن يتفهموا مغزاه الحقيقي، عندئذ لن يسبب الموت خوفاً لمن يعرف طبيعة الموت.

هناك أناس ينكرون بإصرار وجود الألم أو الحزن أو الشر، ومع ذلك ما أن يختبروا تلك الحالات حتى يجدوا أنفسهم عاجزين تماماً عن التعامل معها والتغلب عليها، فيتذمرون ويتساءلون: "لماذا ينبغي أن أواجه هذا الحظ النكد؟" والجواب على هذا السؤال هو: الحصاد من نوع الزرع.

إن نحن حاولنا بوعي وإرادة معرفة السبب من حدوث تلك الحالات سنتوصل إلى معرفتها بكل تأكيد وسنتمكن من التعامل معها بإيجابية والتغلب عليها مستقبلاً. أما إن لم نفعل فسنبقى خاضعين لتأثيرها المحطّم للإرادة والمعنويات. وفي خضم القنوط والإحباط فقد نجد أنفسنا غارقين في مستنقعات الأفكار السقيمة أو مساقين على طرق مسدودة محفوفة بشتى المخاوف والمخاطر.

القوة والشجاعة عنصران ضروريان لمواجهة الإحباط والتغلب على ظروف الحياة المعاكسة. الفهم الصحيح للمسائل سيمنحنا شجاعة توقظ بنا الكبرياء والنخوة لمواجهة ما يعترض سبيلنا من عقبات وصعاب. هذه الكبرياء هي عزة نفس وليست صلفاً أو غروراً. إنها شعور بالقوة الإلهية الكامنة فينا والمناسبة مع كل نقطة من دماننا، مؤكدة لنا بأننا لسنا ضعفاء لأن الله القدير أودع بنا من روحه قبساً مباركاً فيه كل المزايا والصفات الإلهية.

هناك أمثلة عن أبطال وقديسين عذبوا حتى الموت وبعضهم أحرقوا أحياء، ومع ذلك لم يفقدوا جرأتهم لحظة واحدة أو يتخلوا عن عزة أنفسهم. بل وهناك حالات موثقة عن أشخاص مؤمنين بالله وبأنفسهم واجهوا قدرهم المحتوم بوجوه مشرقة تستهزئ بالموت لأنهم أكبر من الظلم والموت. عندما يوشك قارب منكوب على الغرق المحتم، هناك من يصيح ويولول في حين يحافظ البعض على هدوئه واتزانهِ. الصنف الأول لا يمتلك ضبط النفس في حين يتحلى الفريق الثاني بقوة

نفسية تجعل أفراده سادة أنفسهم، مفكرين في اللحظات الأخيرة عن طريقة للخلاص من المصاعب المحدقة بهم، ومحاولين رفع معنويات زملائهم وتشجيعهم على امتلاك أعصابهم ونسيان مخاوفهم والإعتصام بحبل الله.

إننا سائرون على دروب الحياة ولا بد أن نواجه مشاكل ومسائل مثبطة وحالات وأوضاع تبعث على القلق. في تلك الأوقات الحرجة بالإمكان تخفيف وطأة تلك الظروف المزعجة بمجرد تغيير طريقة التفكير بحيث يمكننا أن نبتعد ولو قليلاً عن الهواجس المقلقة، فلا نحمل عبء التفكير الثقيل بتلك الأمور طوال اليوم وربما أثناء النوم ليلاً. فالتفكير المتواصل بالمشاكل المقلقة يضر بالصحة الجسدية والنفسية ويحطم المعنويات ويفت في عضدنا فنفقد شجاعتنا وندفع في دروب ضيقة زلقة لا تليق بالمقام الإنساني الشريف.

الطبيعة البشرية تحب التفكير بالمشكلات فتضخمها وتجعل بحسب المثل الشرقي "من الحبة قبة". هذا من شأنه أن يستنزف القوة والحيوية ويعمق اليأس والتثبيط في النفس. مثال على ذلك هناك شاب كل يعمل في إحدى الشركات وكان يخشى أن يفصل عن عمله نتيجة لتقليص القوة العاملة. ذلك الخوف المتواصل لفقدانه عمله أثر سلباً على أداءه وظيفته مما اضطر الشركة لفصله عن العمل.

ولذلك علينا أن نبذل قصارى جهدنا وأن ننظر دوماً أمامنا ومن حولنا بعين التفاؤل متوقعين أن الأمور ستتحسن وأن "الخير لقدام".

الطبيعة لا تعرف التخاذل والإكتئاب والقنوط. فبعد العواصف والأمطار تشرق الشمس وبعد الليل يبرز فجر، وبعد الشتاء يبرده القارس يأتي الربيع الطلق مختال ضاحكاً!  
إن تطرّق الضعف إلى القلب فعلينا بالصبر والجرأة لمواصلة السير حتى نهاية الدرب.  
(اصبرْ على سود الليالي وادّرْعْ)

بعزيمةٍ كالطودِ إن خطبَ نزلٌ

فالصبرُ مفتاحُ النجاحِ ولم نجدْ

صعباً بغيرِ الصبرِ يبلغهُ الأملُ)

هناك مُحبطون مثبّتون فشلوا لسبب واحد هو خوفهم من الفشل، وكان بإمكانهم تفادي الإخفاق بامتلاك القليل من الشجاعة والإرادة.

إن سر النجاح يكمن في أنفسنا وفي قدرتنا الفطرية التي تقول دوماً: "أرفض رفضاً قاطعاً الاعتقاد بحقيقة الهزيمة أو هزيمة الحقيقة لأن الغلبة للحق. ومع أنني قد لا أنجح دوماً لكن النجاح غايتي التي سأبلغها عاجلاً أم آجلاً. لا شيء يهزمني لأنني أكبر من أن أهزم." العقول القوية لا تعترف بالفشل بل تبحث عن النجاح في كل يوم وفي كل موقف وفي كل فرصة من فرص الحياة التي لا تنتهي. ولعل في القصة التالية درساً للراغبين في التغلب على الفشل. كان لأحد المزارعين حصان لم يعد صالحاً للخدمة بسبب الشيخوخة، فحاول صاحبه العثور على وسيلة للتخلص من ذلك الحصان العجوز. وذات يوم بينما كان الحصان يمشي في الحقل سقط في بئر جافة، فوجد المزارع في تلك السقطة مناسبة لدفن الحصان حياً وملء البئر بالتراب. فأتى برفش وراح يلقي التراب في البئر، لكن الحصان الذي ما زال حياً وراغباً في مواصلة العيش رفض الاستسلام لقدره المحتوم! إذ بينما كان المزارع يلقي بالتراب على جسده راح الحصان يهز جسمه هزاً قوياً نافضاً التراب عنه. وبهذه الطريقة راح يرتفع تدريجياً فوق

التراب الذي ألقاه صاحبه في الحفرة حتى تمكن أخيراً من الوصول إلى المستوى الذي مكنه من الخروج من الحفرة سالماً.

وبالمثل فإن العقول العنيدة باستخدامها القوى الممنوحة لها من الله تنفض عنها غبار المصاعب وتراب الإحباطات لتنهض من كبوتها وترتفع من حُفر اليأس والقنوط إلى قمم النجاح وأفاق السعادة والرخاء.

القلق هو سمة عامة يشترك فيها كل البشر. ففي تعاملنا اليومي مع الآخرين نجد أن معظم الناس يصرفون ساعاتٍ طويلة من يومهم مهمومين قلقين، لا سيما بسبب الظروف المعيشية الصعبة.. القلق بسبب العمل والمشاكل الصحية والاجتماعية والصعوبات المالية ومشاكل أخرى تواجهنا أى توجهنا وكيفما انقلبنا، حتى تصبح تلك المخاوف طبيعة ثانية بالنسبة لنا وجزءاً لا يتجزأ من حياتنا اليومية.

لا جدال أنه يجب أن نأكل ونشرب ونلبس الثياب يومياً. وقد أضفنا أيضاً ضرورة رابعة إلى روتيننا اليومي وهي القلق.

ولكن يجب أن نميز بين القلق والتفكير. فعندما يواجه أحدنا صعوبة يستطيع بالتفكير البناء أن يسيطر على حواسه وقواه النفسية وإرادته وقدراته العقلية، مما يجلب نتائج جيدة من حيث إيجاد مخرج للمعضلة وحل للمشكلة.

ولكن إن راح الشخص يقلق في تعامله مع المشكلة يصبح كالطفل الصغير لا حول له ولا قوة. ويصبح ضيق الصدر، متهيجاً منزعجاً غير قادر على رؤية ولو بصيص هداية مهما كان ضئيلاً، فيقع في حيص بيص وتكتفه غيوم الحيرة والإرتباك من كل جانب. وإذا استولى عليه الإنفعال يفقد القدرة على المقاومة ويجد نفسه مندفعاً مع التيار في نهر الحياة الهادر الصاخب دون إمكانية الوصول إلى شاطئ الأمان.

القلق يخلق اهتزازاً سلبياً في داخلنا ويجعلنا أكثر عرضة لاستقبال كل ما هو سلبي في الآخرين من حولنا فنصبح محاطين بأمواج غير صحية. في مثل هذه الحالة نجلب لأنفسنا المرض والإحباط وفقدان الأمل والشكوك والمعاناة والأحزان، بل وربما الموت أيضاً.

القلق سببه الخوف الذي يطوقنا بصورة أو بأخرى ويلفنا بحبال غير منظورة يصعب التخلص منها. يقال أن ملاك الموت طلب من أحد الأولياء الصالحين، الموكل إليهم حراسة إحدى القرى، الدخول إلى تلك القرية، لكن الولي رفض الطلب. فأجاب الملاك أن بعض سكان القرية هم على وشك الموت ولا بد من حضوره لأخذ أرواحهم.

سأله الولي عن عدد هؤلاء الأشخاص، فأجاب الملاك ثلاثة فقط، فوافق الولي وسمح له بالدخول إلى القرية.

بعد دخول ملاك الموت القرية بقليل أصيب ثلاثة أشخاص بالجذري وتوفوا. لكن عدد الوفيات تزايد حتى بلغ المائة. فاستدعى الولي الملاك وطلب منه تفسيراً لذلك. فأجاب الملاك: "حسبما وعدتك لم آخذ سوى ثلاثة أشخاص فقط، أما الباقون فقد ماتوا من الخوف!"  
ألا نخشى دوماً من أن الظروف المعاكسة ستعترض سبيلنا وبذلك نعاني من الخوف؟

بالحقيقة في معظم الأحيان نجد أن الأشياء التي نخشاها لا تحدث لنا. وهناك أناس أصبح الخوف بالنسبة لهم أمراً حتمياً، ويبدو أنهم يستمتعون به!

نرى أحدهم يصاب بمرض أو حالة ما فنخشى أن يحدث نفس الشيء لنا. ولكن إن غيرنا مجرى تفكيرنا وتفاعنا بأن الخير قادم إلينا نستقطب بذلك التفكير ظروفاً إيجابية مرغوبة بفضل إشباع عقولنا بالأفكار الإيجابية. ونتيجة لذلك سنتمكن أيضاً من الحصول على قوى وبركات من الله الذي هو مصدر كل القوى والخيرات فنحسّ بالصحة والنشاط والقوة والحيوية. هناك سبب آخر للقلق وهو مكانتنا في عيون الناس. نتساءل أحياناً ما إذا كان الآخرون يحبوننا ويحترمونا، وما إذا كانوا راضين عن أسلوب حياتنا. وقد تنتابنا الظنون بأن الغير يغتابونا أو أنهم يضمرون نحونا بخلاف ما يبدو، فيساورنا القلق جراء ذلك.

ولكن إن عشنا لنرضي الآخرين سيخيب ظننا، لأن الناس ليسوا بنفس المستوى من حيث الفهم والنمو والتجاوب. وعندما لا نقلق لردود أفعال الآخرين نرتاح نفسياً ونعيش حياتنا بالكيفية التي تروق لنا.

وهكذا نجد أن الحياة سلسلة متواصلة من المخاوف والهموم، تسلب الإنسان سلامه وتعكر عليه صفوه. ولكن هناك طريقة للإفلات من تلك الدوامة. لو عدنا بأفكارنا إلى أيام الطفولة لوجدنا أنها كانت خالية تقريباً من الهموم والشكوك والتناقضات. كنا نمتلك آنذاك ثقة تامة بأبويننا. ألا نستطيع أن نضع نفس تلك الثقة في الله مدركين أن نوره يهدينا ويحمينا على الدوام؟! فلنعزز إيماننا به ولنذكر أنه ربنا ورفيق دربنا الذي لا يتخلى عنا ولا يخذلنا حتى ولو هجرنا الجميع. ولنتخفف من أعباء الحياة الثقيلة بتبسيط احتياجاتنا والتمتع بما أنعم الله علينا به، واثقين أنه سبحانه سيمنحنا كل ما نحتاج إليه. ومع تلك الثقة الضمنية بالله وعونه ستطمئن قلوبنا وتحرر من الخوف. ألا بذكر الله تطمئن القلوب.

والسلام عليكم.